المــدارس التعليـمية في مكة المكرمة
(القرن العاشر الهجري/الخامس عشر ميلادي)
(دراسة تاريخية وصفية)

أ.أمــنيه بنت حسن بن علي يماني

قسم التاريخ والآثار - كلية العلوم الاجتماعية
جامعة أم القرى – المملكة العربية السعودية

المستخلص:

تناولت هذه الدراسة المــدارس التعليمية في مكة المكرمة (القرن العاشر الهجري/الخامس عشر ميلادي)، ان مكة المكرمة لها مكانة خاصة في قلوب المسلمين، فهي مهوى افئدتهم، وقبلتهم، ومهبط الوحي، وفيها المسجد الحرام، وهي مقصد للمعتمرين، والحجاج، والزائرين، هذا في الجانب الديني، اما العلمي فقد كان في مكة المكرمة وبالأخص في المسجد الحرام بداية شرارة العلم، والتعلم فقد حث الدين الإسلامي على العلم ورفع من منزلة أصحاب العلم درجات لهذا حرص العديد من السلاطين، والخلفاء على تطوير اماكن التعليم من كتاتيب الى مدارس الى جامعات، وبعد ظهور المدارس شهدت مكة تطور كبير من الناحية العلمية، ومن اهم المدارس التي تم انشائها في مكة والتي سوف تكون محور هذه الدراسة هي (المدرسة السليمانية والمدرسة الصولتية) وتهدف هذه الدراسة الى معرفة الحياة العلمية في مكة المكرمة في العصر الحديث، والتعرف عليها ايضًا من خلال كتابات الرحالة، وتتجلى أهمية البحث في العديد من النقاط التي يستوجب ذكرها مثل وصف المباني المدرسية والمذاهب المعتمدة للمدارس وطريقة اختيار موقع بناء المدارس، وقد تم استخدام المنهج التاريخي الوصفي لهذه الدراسة، وقد تبين للباحثة ان الحياة العلمية في مكة مرت بمراحل عديدة حيث بدأت بحلقات تعليم بالمسجد الحرام وتطورت بشكل ملحوظ عند نشأة المدارس الذي زادت من نسب المتعلمين في المنطقة وشجع على العلم والمعرفة.

الكلمات المفتاحية: مدارس مكة، المدرسة السليمانية، المدرسة الصولتية، الرحالة، المسجد الحرام.

Educational schools in Makkah
(Tenth century AH / fifteenth century AD)
(Descriptive historical study)

A.Omnia Bint Hassan Bin Ali Yamani

Abstract:

This study dealt with the educational schools in Mecca (the tenth century AH/fifteenth century AD). Mecca has a special place in the hearts of Muslims, as it is the cradle of their hearts, their qibla, and the landing place of revelation. It contains the Grand Mosque, and it is a destination for Umrah pilgrims, pilgrims, and visitors. On the religious side, as for the scientific aspect, it was in Mecca, especially in the Sacred Mosque, that the spark of knowledge and learning began. The Is-

lamic religion encouraged knowledge and raised the status of those with knowledge by degrees. This is why many sultans and caliphs were keen to develop places of education, from libraries to schools to universities. After the emergence of schools, Mecca witnessed great development from a scientific standpoint. Among the most important schools that were established in Mecca, which will be the focus of this study, are (the Sulaymaniyah School and the Sawliyya School). This study aims to know the scientific life in Mecca in the modern era, and also to learn about it from Throughout the traveler's writings, the importance of research is evident in many points that need to be mentioned, such as the description of school buildings, the doctrines adopted for schools, and the method of choosing the site for building schools. The descriptive historical approach was used for this study, and it became clear to the researcher that scientific life in Mecca went through many stages, as it began with episodes Education at the Grand Mosque developed significantly with the establishment of schools, which increased the proportion of learners in the region and encouraged science and knowledge.
Keywords: Mecca schools, Al-Sulamaniyah school, Al-Sawliyya school, Travelers, the Grand Mosque.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين اما بعد.

لمكة المكرمة مكانة عظيمة عند المسلمين، فهي مهبط الوحي ومهد الرسالة، وبها المسجد الحرام والكعبة المشرفة قبلة المسلمين، وفي كل عام يأتي أليها المسلمين من كل بقاع الارض لأداء فريضة الحج. وقد حظيت مكة المكرمة باهتمام بالغ من قِبل السلاطين والامراء واصحاب النفوذ على مر عصورها، وأنفقوا من أجلها الاموال في سبيل تطويرها وتقديم كل ما تحتاجه من خدمات، فقد اهتموا بالعلم والتعليم، وبذلوا الغالي والنفيس من اجل تطوير الجانب العلمي فيها، فأسسوا المدارس والمكتبات المتعددة التي اضافة الشي الكثير لسكان المدينة، وكانت شي جديد على هذه المنطقة، فشهدت مكة تطور كبير من الناحية العلمية بعد ظهور المدارس. وتَبرز اهمية هذه الدراسة في معرفة أشهر مدارس مكة في القرن العاشر الهجري/ الخامس عشر ميلادي (المدارس السليمانية والمدرسة الصولتية) من حيث مبناها والمذاهب الفقهية التي تُدرس بها.

اهتم الإسلام بالعلم والحث عليه، وبين فضله، ومما يظهر اهتمام الاسلام بالعلم والتعليم قول الله تعالى:(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)[1]. ولقد ضرب الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم مثل لتنفيذ اوامر الله عز وجل في الاهتمام بالعلم والتعليم والحث عليه، ففرض على أسرى بدر تعلم القراءة والكتابة[2]، كذلك حث الصحابة

على تعلم اللغات الأجنبية، فطلب من زيد بن ثابت رضي الله عنه[3] ان يتعلم كتابة اليهود؛ لأنه لا يأمن جانبهم، وسار حكام الدولة الإسلامية على هذا النهج فهم قادتها وقدوتها وحماة الشريعة، وديننا الحنيف يحث على العلم وطلبه وبخاصه العلوم الشرعية الغراء، ويفضل فيمن يلي امر المسلمين ان يكون على علم وفهم بعلوم الشريعة التي يكون تطبيقها في الرعية من اوجب واجباته[4]. ولئن كان هذا الاهتمام العلمي امرًا طبيعيًا في حكام المسلمين، ان الاهتمام بالحياة العلمية في الحرمين الشريفين اشد وابين لما لمكة المكرمة[5] والمدينة المنورة[6] من المكانة الدينية العالية في النفوس، ويتبع ذلك اهتمام الاهالي لوجودهم في رحاب البلاد المقدسة التي تضفي على ساكنيها حبًا للعلم واستشعار لأهميته والحاجة اليه[7].

المبحث الاول: الحياة العلمية في مكة المكرمة في العصر الحديث:

المطلب الأول: التعريف بمدارس مكة.

كان لمدارس مكة اهمية تعليمية حضارية، فهي مبنى لتلقي العلم هُيئ بطريقة تلائم التعلم، وزود بما ييسر على الطالب طلب العلم، بهدف إيجاد مناخ دراسي مشجع يجذب نحوه الطلاب، وقد شهدت مكة اول مدرسة في الإسلام، وهي دار الأرقم بن ابي الأرقم[8]، وقد انتشرت في مكة المكرمة ثلاثة انواع من المدارس:

1. مدارس ملحقة بالمسجد الحرام وبمحيطة.
2. مدارس حكومية نظامية حديثة.
3. مدارس اهلية نظامية حديثة.

وكان لكل نوع من المدارس اسباب ادت الى انشائها، واهداف تربوية وتعليمية يطمح إليها[9].

أولاً: المدارس الملحقة بالمسجد الحرام ومحيطة:

وهي مدارس أنشأها السلاطين والوزراء، وكان التعليم فيها يعتمد على العلوم الدينية، كتفسير القرآن وعلوم القراءات والفقه وأصوله والحديث وعلومه، واللغة العربية بصرفها ونحوها، مع الاهتمام بعلوم البلاغة والفلك والحساب، وما يميزها أن أصحابها اوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة، وبخاصة مدارس السلاطين و الأمراء، التي وقف عليها أوقاف كثيرة بمصر من قرى وضياع؛ بل أقاليم برمتها، كفلت بقاءها واستمراريتها، وكانت هذه المدارس بالمسجد الحرام أو محيطه، وألحق بها خلوات لسكن المعلمين مثل المدارس السليمانية، ومدرسة داود باشا[10]. ومما لا شك فيه أن مثل هذه الخلوات تحقق عدة أهداف للمدرس والطالب والمدرسة، فهي من جهة تزيح عن المعلم عناء البحث عن سكن قريب من المدرسة، وفي الوقت نفسه توفر مقاربة علمية بين المدرس والطالب للتجاور في المسكن، وهذا يتيح للطالب التعلم في حياته اليومية بعيدًا عن قاعة الدرس[11].

كما ان كثيرًا من المدارس ألحقت بها أربطة لكي يسكن فيها الطلبة، وبكل تأكيد تأمين السكن للطالب يجعله في غنى عن العمل من أجل توفير أجرة مسكن له أو لعائلته إن كان متزوجاً، وبخاصة الطلبة القادمون إلى مكة المكرمة من أقطار العالم الإسلامي طلباً للعلم فحين يجد الطالب أن هذه المدارس وفرت له السكن، فإنه يتفرغ لطلب العلم بنفس مستقرة وذهن صاف وبتركيز أكبر، ومن ثم يؤدي المهمة التي قدم من أجلها بنجاح.

ثانياً: المدارس الحكومية النظامية الحديثة:

وينقسم التعليم فيها إلى مراحل:

- المرحلة الأولى: وتشمل التعليم الابتدائي، وهي مقسمة ثلاثة مستويات على النحو الآتي: المدارس الصبيانية (الكتاتيب)[12]، الابتدائية (الابتدائي المنخفض)، الرشدية (الابتدائي العالي).
- المرحلة الثانية: وتشمل التعليم الثانوي، وهي مقسمة ثلاثة مستويات على النحو الآتي: الإعدادية أو «المتوسطة»، (الثانوي المنخفض)، السلطانية (الثانوي العالي).
- المرحلة الثالثة: وتسمى مدارسها (المدارس العلية)، وكانت مختصة بتعليم الفنون والحرف والعلوم.
- المرحلة الرابعة: الجامعة، وكانت تسمى (دار الفنون).
- وهذا الترقي في نوعية المدارس يعد نقلة نوعية في التعليم، فهو وإن أعطى الطلاب مساحة ثقافية واسعه، إلا أنه في المقابل شتت كثيراً من قوى الطالب التي كانت ترمي إلى نوع واحد من العلوم، وهو العلوم الشرعية[13].

ثالثاً: المدارس الأهلية النظامية الحديثة:

عرفت مكة المكرمة المدارس الأهلية منذ الربع الأخير من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، فتذكر لنا المصادر التاريخية أن أحد تجار مصر[14] الأثرياء ويدعى العفيف عبد الله بن محمد الأرسوفي[15] أنشأ سنة 571هـ/1175م بمكة المكرمة قريباً من باب العمرة مدرسة عرفت بمدرسة الأرسوفي. وقد توالى فتح كثير من المدارس الأهلية بمكة المكرمة لاحقاً، وتعددت الأسباب والأهداف التي من أجلها أنشئت مثل هذه المدارس، وتنوعت طرائق الإنفاق عليها والخدمات التي تقدمها إلى طلابها، والمميزات التي تجعلها منفردة عن غيرها، شهدت مكة المكرمة عدداً من المدارس الأهلية، إذ تضافرت عدة سباب دفعت الأهالي بمكة المكرمة إلى إنشاء مثل هذه المدارس التي تعلم العلوم الدينية والعربية، بجانب العلوم الحديثة بعدما لمس ضعف المدارس العثمانية وقلة فائدتها، ونتيجة لذلك سارع الاهالي إلى فتح مدارس أهلية نظامية بمكة المكرمة بعد أن حصلوا على رخصة من قبل الدولة، فمنذ أن وضعت الحكومة العثمانية قانون التعليم سنة ١٢٨٦هـ /١٨٦٩م الذي صنف المدارس إلى صنفين: حكومية (عامة)، ومدارس أهلية (خاصة)، تشرف عليها الدولة مباشرة، كان لا بد على الراغبين من الأهالي في فتح مدارس أهلية من الحصول على ترخيص من الدولة العثمانية[16].

المطلب الثاني: المدارس من خلال كتب الرحالة.

إن تاريخ القطبي يفيد أن أول مدرسة بنيت في الدنيا مدرسة نظام الملك في بغداد وهي مدرسة نظامية إسلامية شيدها الوزير نظام الملك[17] ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥م، فبلغ علماء ما وراء النهر هذا الخبر فاتخذوا للعلم مأتماً، وحزنوا على سقوط حرمة العلم، فسئلوا عن ذلك فقالوا: إن العلم ملكة شريفة فاضلة لا تطلبها إلا النفوس الشريفة الفاضلة، لجاذب الشرف الذاتي والمناسبة الطبيعية ولما حصل عليه أجرة، تتطلبه النفوس الرذيلة وتجعله مكسباً لحطام الدنيا، وتتزاحم عليه لا لتحصيل شرف العلم، بل لتحصيل المناصب الدنيوية السفلة الفانية، فيرذل العلم برذالتهم ولا يشرفون بشرفه، ألا ترى إلى علم الطب فإنه مع كونه علماً شريفاً

تعاطته أراذل اليهود بشرف علم الطب، وهذا حال أكثر طلبة العلم في هذا الزمان الفاسد، وهذا شأن طلاب هذه العلوم المتداولة الآن في هذا السوق الكاسد، ويضيف قطب الدين الحنفي أن مخاوف هؤلاء العلماء لها ما يسوغها، لأن هذه المدارس إن لم تكن نتيجة انحطاط الحركة العلمية، فإنها على الأقل مؤشر لمثل هذا الانحطاط[18].

إن هذه المدرسة التي تحوي الكثير من قاعات المحاضرات بالإضافة إلى مكتبة عامة، لم يكن الهدف من إنشائها زيادة وسائل المعرفة، بل كانت تهدف إلى تشجيع الناس على طلب العلم، وذلك عن طريق تأمين المأكل والمسكن لهم، إن طلب العلم هو فرض عين على مجموع الأمة، وعلى الحكام أن يجدوا الوسائل الكفيلة لتحقيق ذلك، إذا لم يوجد المتطوعون لطلب العلم، كما أن على الأغنياء الإسهام بأموالهم لتحقيق ذلك أيضاً، لقد أقام نظام الملك هذه المدرسة الكبيرة التي تحوي الكثير من الحجرات الصغيرة لسكن الطلاب والمدرسين، وكذلك بعض قاعات التدريس، ولقد وضع بمساعدة الكثير من أصدقائه العلماء ومشورتهم الحلول لعدد من الموضوعات: مثل عدد المدرسين، وعدد الطلبة، ونوع الموضوعات التي يجب تدريسها، وعدد ساعات الدراسة، والشروط الواجب توافرها في المتقدمين، والأشخاص الذين سيتولون إدارة الوقف المخصص لهذه الدراسة، والدخل ومدى كفايته لصيانة المدرسة والإنفاق على متطلباتها.

في مكة لا توجد حاجة ماسة إلى قاعات للمحاضرات؛ لأن مكان المحاضرات هو صحن المسجد في ساعات النهار الباردة، وفي الأروقة عندما يشتد الحر، والمحاضرات من النادر أن تتوقف نتيجة هطول الأمطار، ومع هذا فإن لكل مدرسة من مدارس مكة قاعات للمحاضرات وجدت نتيجة للعادة أو لأغراض الاستعمال الإداري. ويحدثنا قطب الدين عن مدرسة بنيت وكانت تحوي مكتبة كبيرة بناها أحد خدم الخليفة المستنصر[19] بجوار باب السلام، كما يحدثنا عن مدرسة أخرى بجانب باب السلام أيضاً بناها السلطان المملوكي قايتباي[20]، وكانت تحوي قاعة محاضرات جميلة واثنتين وسبعين خلوة (غرفة معيشة صغيرة) ومكتبة تحوي كتباً على المذاهب الأربعة[21]. وهناك مدرسة ثالثة بناها السلطان العثماني سليمان القانوني[22] إلى الجنوب من المسجد الحرام. ولقد كان قطب الدين نفسه مدرساً بهذه المدرسة. وبجانب هذه المؤسسات الكبيرة هناك الكثير من المدارس الصغيرة التي أنشأها أمراء من الهند[23] أو من مصر أو بعض الحجاج الأثرياء، ولقد كان هؤلاء المتبرعون يرصدون أموالاً للإنفاق على هذه الدروس من طلبة ومدرسين بالإضافة إلى تخصيص بعض المبالغ التي ترصد لقراءة القرآن في أوقات معينة بهدف زيادة الثواب، وإن الإدارة السيئة وعدم استغلال الأموال في المناحي المخصصة لها ساعد على اضمحلال هذه المدارس، إذ لم تنقض سنوات قليلة على إنشائها حتى بدأ الخراب يتسرب إلى هذه المؤسسات، فسوء الإدارة ساعد على تقليص دخل هذه المؤسسات، لدرجة أصبحت معها عاجزة عن دفع مرتبات المدرسين ومجريات الطلبة، وحتى عن صيانة البناء نفسه، وحينذاك يعد المسؤولون هذه المؤسسات من الأماكن المهجورة، وربما يتخذها بعضهم سكناً له، أو يقوم بتأجيرها للحجاج الأثرياء، أو لأهل مكة الذين يفضلونها على غيرها لقربها من الحرم الشريف، ويقول قطب الدين بهذا الصدد: «لقد أصبحت هذه المؤسسات بأيدي هؤلاء الأشرار يديرونها ولم يبق إلا بعض الغرف القليلة التي يستوطنها بعض المدرسين والطلبة، أما باقي الغرف فيتصرف بها المالك الثري الذي آلت إليه، والذي يقوم بين الحين والآخر بترتيب إقامة بعض المحاضرات في القاعة تخليداً لذكرى المؤسس، لقد

وصل الحال إلى أن كلمة مدرسة أصبحت تعني داراً جميلة بجوار الحرم، دون أن يتكون لدى الغالبية العظمى من السكان فكرة واضحة عن المعنى الأساسي لهذا التعبير[24].

المبحث الثاني: المدارس في القرن العاشر الهجري:

المطلب الأول: المدارس السليمانية.

تعد المدارس السليمانية أول آثار العثمانيين العلمية في مكة المكرمة، بل إن بعض المؤرخين عدوها من أهم أعمال السلطان سليمان، وقال الغزي في ترجمته للسلطان سليمان: «وله المدارس العظيمة بمكة المشرفة، وقد أورد المؤرخون سبب إنشائها فمن ذلك ما ذكره النهروالي حيث قال: وسبب ذلك أن الأمير إبراهيم أمين[25] إجراء عين عرفات عرض على الأبواب الشريفة السليمانية، وأنهى للأعتاب العلية الخاقانية أن المناسب للشأن الشريف السلطاني أن يكون لحضرة السلطان بمكة المشرفة أربع مدارس على المذاهب الأربعة يدرس فيها علماء مكة المشرفة علم الفقه ليكون سببًا لانشغالهم بعلم الشرع ويسطر ذلك في الصحائف حسنات للسلطنة؛ فأجابه السلطان سليمان المرحوم إلى ذلك، وذكر الطاهر أن ذلك كان في سنة 970هـ/ 1562م.

كلف السلطان سليمان الأمير قاسم بك[26] أمير (أمين) جدة بأن يبادر إلى العمل، وأن يختار أحسن الأماكن اللائقة لبناء هذه المدارس، وبعد تشاور قاسم بك مع الأمير إبراهيم وغيرهما من الأعيان اتفق على أن اللائق لبناء هذه المدارس الجانب الجنوبي من المسجد الحرام المتصل به من ركن المسجد إلى باب الزيادة، وذكر النهراوالي في يوم وضع حجر الأساس: تقدم قاضي مكة المكرمة أحمد بن محمد بك النشانجي[27] ووضع بيده الشريفة الأساس، وتبعه من حضر من العلماء والسادات والأمراء وأعيان الناس، ووضع كل واحد منهم حجرًا في ذلك الأساس، وكان ذلك يوما مشهودًا مباركًا مسعودًا، ومن مظاهر اهتمام السلطان بإنشاء المدارس أن اختار لبنائها المعمار سنان باشا[28]، لم تتم عمارة المدارس السليمانية في عهد السلطان سليمان رغم حرصه على إكمال العمل ومتابعته لأعمال البناء، ورسائله المتوالية إلى والي مصر وشريف مكة المكرمة ومأموري البناء لبذل الجهد لاستكمال إنشاء المدارس الشريفة، وأوامره إلى قاسم بك بالاستعجال والاهتمام، حيث توفي السلطان سليمان، وتولى بعده ابنه السلطان سليم الثاني[29] فتمت في عهده، وكان تمام بناء المدارس في سنة 977هـ/1569م، ونجد أن المدارس السليمانية قامت بدور كبير في نشر العلم بمختلف المذاهب الإسلامية فقد كانت جامعة إسلامية تدرس المذاهب الفقهية المختلفة فضلاً عن علم الحديث، مما جعل لها أثراً كبيراً في نشاط الحركة العلمية والتعليمية بمكة المكرمة[30].

عمارة المدارس السليمانية:

عندما قام السلطان سليم الثاني بعمارة المسجد الحرام أقام بإحدى المدارس السليمانية منارة عرفت بالمنارة السليمانية وصفها الجمال الطبري بقوله: «وهي منارة في غاية العلو والارتفاع مبنية بالحجر الشميسي مسبوكة بسبك الذهب الأحمر بدورين أساسات محكمة موضوعة رأسها على أسلوب منائر بلاد الروم، تكاد تلامس معارج النجوم وتغوص في الأرض إلى مدارج التخوم، وقد ضم مبنى المدارس السليمانية قبتين أكبر من قباب أروقة الحرم في الحجم وتتوسطها المئذنة المذكورة بطابعها العثماني المميز، وقد بلغ عدد حجرات المدارس السليمانية ستًا وأربعين حجرة، موزعة على أدوار متعددة، ويمر أسفل منها

ممر يوصل إلى الحرم من إحدى جهاته وبالشارع العام من الجهة الأخرى، ويدخل للمدرسة من دهليز به بئر، وهي مطلة على الحرم، وتتوسطه قاعة محاضرات تعلوها قبة كبيرة. وحرصًا على أداء المدارس لرسالتها العلمية الكاملة كان السلطان سليمان قبل وفاته قد أمر بإنشاء مكتبة بها، كما أرسل في سنة 973هـ/ 1565م وزيره محمد باشا[31] إلى مكة وطلب منه أن يختار له مكانًا ليجعله رباطًا للفقراء، وأن يجعل له موردًا ينتفع به فقام بإنشاء الرباط الذي عرف برباط السليمانية، وقام بإنشاء مجموعة من الدكاكين للصرف عليه[32].

وقد كان عمق الأساس عشرة أذرع، وعرضه أربعة أذرع بذراع المعمار، فكان أساساً قوياً، وقام بالعمل والإشراف على البناء الأمير قاسم والي جدة[33]، إلى أن تم بناء المدارس الأربعة على أكمل وجه، وزاد في عرض الجدران زيادة في متانة البناء، وعمل بها مئذنة عالية، وضم سقوف المدارس بعضها مع بعض فظهرت كأنها بناء واحد، وعمل أبوابها من الخشب المعتق. وتم الانتهاء من بناء تلك المدارس في عهد السلطان سليم الثاني. وربما يعود ذلك لكبر مساحة المدارس وضخامة البناء وارتفاع التكاليف، وقد صمم مبنى المدارس السليمانية بشكل جميل، وتتوسط المبني قاعة محاضرات تعلوها قبة كبيره، كما احتوت المدارس على خلاوي للمدرسين، يجلسون فيها لإلقاء الدروس، وايضًا مساكن للطلبة، والمعاونين، كما أمر السلطان سليمان قبل وفاته بإنشاء مكتبه بها، وذلك حرصاً منه على أداء المدارس لرسالتها العلمية على أكمل وجه[34].

المطلب الثاني: المدرسة الصولتية.

وهي من أوائل المدارس الأهلية النظامية، وكانت لها بصمات واضحة في العملية التعليمية بمكة المكرمة، أنشأها الشيخ محمد رحمت الله الهندي[35] الذي قدم مكة المكرمة من بلاده، وأذن له بالتدريس في المسجد الحرام، تقديراً لفضله، ولما رأى أنه لم تكن هناك دراسة منهجية أو مدرسة في مكة المكرمة، أسس أول مدرسة على نفقته وبمفرده في المسجد الحرام؛ وذلك في سنة 1285 هـ/1868م، إلا أن وجود مدرسة في محيط المسجد الحرام يؤدي الغرض المنشود من حيث تنظيم الدراسة، كما كان ينشدها على غرار مدارس الهند الإسلامية والجامع الأزهر، وغيرها المدارس الإسلامية المنتشرة في بلدن العالم العربي، وقد وفق الله أحد أمراء الهنود المهاجرين المقيمين بمكة المكرمة فتبرع ببعض الأماكن من داره، وانتقلت مدرسة رحمت الله الهندي إلى هذه العمارة بمنطقة الشامية، وما إن سمع أهل مكة المكرمة عن فتح مدرسة مستقلة على نهج جديد حتى أقدموا على إلحاق أبنائهم بها، وضاقت الدار بالطلاب، واضطر المؤسس إلى نقل نصف طلابه إلى الحرم الشريف مرة ثانية، وكان الشيخ رحمت الله دائم السعي كثير الاجتهاد لبناء عمارة كبيرة مستقلة للمدرسة، فقد أدرك حاجة مكة المكرمة إلى مدرسة نظامية، ولكن كان ينقصه المال اللازم لإنشائها، وفي سنة 1290 هـ/1873 م، جاءت لأداء فريضة الحج سيدة هندية ثرية، تدعى صولت النساء[36]، وأبدت رغبتها في بناء رباط بمكة المكرمة، وكان زوج ابنتها على اتصال مستمر بالشيخ وعرض عليه رغبة صولت النساء، فأوحى لها الشيخ أن بمكة المكرمة الأربطة، وما ينقصها هو مدرسة تعنى بتعليم أبناء المسلمين، فاستحسنت صولت النساء هذا المشروع التعليمي الخيري، ودفعت الأموال اللازمة، لإقامة هذا الصرح العلمي، فاشترى قطعة أرض بحارة الباب وبنى أول بناية للمدرسة وكمل البناء سنة 1292 هـ/1875م، وسميت المدرسة باسم المدرسة « الصولتية» نسبة إلى المحسنة المتبرعة، وبدأ التدريس فيها عام1293 هـ / 1874م وتوسعت المدرسة، وأصبح لها عدة فروع في حي أجياد والمسفلة والهجلة، كما أصبح لها عدة بنايات، ففي سنة 1302

هـ/ 1884 م ابتدئ بتشييد مسجد المدرسة، وكمل البناء سنة 1304 هـ/1886 م، وقد كان المسجد مقر قسم الحفاظ سابقاً. وقد أقامت المدرسة مبنى سنة 1324هـ/ 1907م، وهذا المبنى يضم جميع الفصول والمكتبة، إضافة إلى مبنى رابع لطلاب القسم الداخلي يشتمل على عدة غرف وفرت فيها سبل المعيشة الضرورية، وقد سكن فيه عدد من الطلبة من جنسيات إسلامية وعربية مختلفة، كالعراقية واليمنية والسورية والتركية والإيرانية والهندية والإندونيسية والأفغانية والبخارية، كما أن المدرسة كانت توفر لجميع طلابها وجبة الفطور والغداء بالمجان، فقد كانت العادة أن يحضر الطلاب والمدرسون إلى المدرسة بعد صلاة الصبح، وبعد أداء نوافل الإشراق في المدرسة تقدم وجبة الفطور، ثم تبدأ الدراسة وتستمر حتى صلاة الظهر ، وبعد صلاة الظهر تقدم وجبة الغداء ولاشك أن نظام اليوم الكامل المعمول به في نظم التعليم الحديث يقتضي اعتماد الطالب على المدرسة لا في التعليم فقط، بل في تناول الوجبات الغذائية المناسبة أيضاً، فكان نظام الصولتية سابقاً عليه، وهو ما أفاد الطلاب، وكان تميزاً في التعليم جديداً على مدارس مكة المكرمة نسبياً[37].

عمارة المدرسة الصولتية:

تقع المدرسة الصولتية في الجهة الشمالية الغربية من الحرم المكي الشريف، ولقد وضعت أول لبنة أساسية لهذا المبنى في عام 1290هـ / 1873م، وهو أول بناء تاريخي للمدرسة بني على نفقة السيدة البارة/ صولت النساء بيغم والتي تبرعت بألف جنيه افرنجي للمساهمة في إنشائه، وهذا المبنى مستطيل الشكل تقريباً يمتد طوله إلى الداخل والخلف ويزداد في عرضه من الخلف. واجهة المبنى تطل على الجهة الشمالية حيث توجد برحة مربعة واسعة، ويقابله مسجد المدرسة، ويشتمل على دورين فقط علوي وأرضي مجموع غرفه ثمان غرف ما بين صغيرة ومتوسطة وكبيرة بالإضافة إلى قبو أرضي. وينقسم المبنى إلى قسمين أمامي وخلفي بينهما رحبة سماويـة فسيحة، المبنى تم بناؤه من الحجر واسقفه من الخشب العادي حسب الطريقة التي كانت متبعة آنذاك، وللمبنى باب واحد فقط في الواجهة الشمالية يدخل إليه بعد أربع درجات، يعلوه عقد نصف دائري ولعقب الباب دهليز صغير مسقف على يمينه دكة للجلوس وعلى يساره غرفة صغيرة مساحتها 2 × 3 م ، ويطل بابها على الرحبة السماوية التي تلي الدهليز ، وعلى يمين الرحبة حمامان صغيران، وبجانب باب الغرفة الصغيرة باب يؤدي إلى القبو المربع تحت الأرض ينزل إليه بدرجات، ويقابل الدهليز المذكور ديوان كبير مفتوح، نصفه مسقف مساحته 4 × 8م تقريباً[38]. وبجانبه مكان خصص للوضوء ووضع الأباريق وأزيار الماء للشرب. وفي الجانب الشرقي من المبنى فتحة سماوية أخرى كانت مزروعة وفيها شجر النيم وهو الموضع الذي إختاره الشيخ المؤسس أن يكون قبره فيه بعد وفاتـه، ولكنه لم يدفن هناك، بل في المعلاة. وعلى الرحبة السماوية الثانية يطل ديوان ثاني أكبر من الأول تبلغ مساحته 6 × 10م، وخلف الـديـوانـيـن المذكورين غرفتان منفصلتان عن بعضهما يدخل إليهما بدرج داخلي ولهما فتحتان للتهوية تطلان على الديوانين الكبيرين، كما أن لكل منهما فتحه مستقلة في الرحبة السماوية الداخلية، وتحت هاتين الغرفتين صهريجان (خزان أرضي) لتخزين الماء لكل منهما فتحتين صغيرتين، كان ماء المطر يصب فيها عبر مجرى في داخل الجدار من السطح إلى الصهريج، وبين الديوانين المذكورين حمامان منفصلان يتوصل إليهما عبر ممر ضيق يؤدي إلى الصهريجين والرحبة السماوية الخلفية وإلى الدرج الصاعد إلى الدور الثاني ، وفي لفات الدرج حمامان صغيران أما الدور الثاني من الجانب الخلفي من المبنى فيحتوي على مجلسين

طـويـلـيـن يطلان على الرحبة السماوية الداخلية والرحبة الخلفية يتوسط كل منهما عقد من الحجر يفصل بينهما بستار ويعلو المجلسين المذكورين سطح واسع بدون سور وقد مهدت أرضية هذا السطح تمهيداً فنيا معمارياً، حيث جرى تقسيم الأرضية إلى أقسام يستفاد منها في كيفية تصريف وتسرب مياه الأمطار منقسمة متفرقة عبر فتحة إلى مجرى يوصل إلى الصهريجين الأرضيين بحيث لا تصب المياه دفعة واحدة، وهكذا كان يستفاد من مياه الأمطار في المبنى المذكور وتكون مخزونة في الصهريج للاستفادة منها وفي السابق يتم سحبها بواسطة الدلو، وأما الآن فعن طريق الكهرباء ودينمو الماء، هذا وصف للجانب الخلفي مع المبني، أما الجانب الأمامي فيحتوي الدور الأرضي منه على الغرفة الصغيرة والقبو الذي تحتها، أما الدور الثاني فيشتمل على غرفة كبيرة ذات روشانين كبيرين يطلان على الواجهة الشمالية والرحبة السماوية الداخلية يصعد إليها بدرج حجري، ويعلو الغرفة سطح ذو سور دائري جميل يشتمل على فتحات ورفوف من الداخل وفيه من الأجور الملـون وقد بنيت فيما بعد غرفة صغيرة وحمام في جانب السطح، ومع مرور الزمان وتطور الأحوال وتغير الظروف تمت عدة عمليات إصلاحية للتغيير والترميم في الأبواب والرواشين والأسقف لقدمها وعدم جدواها، ولايزال هذا المبنى يستخدم كمقر لإدارة المدرسة واستقبال الضيوف والزوار[39].

الخاتمة:

ومن خلال ما تم ذكره تبين للباحثة ان الحياة العلمية في مكة كانت على قدر من التطور والازدهار، وكان للمدارس المنشأة دور كبير في هذا التقدم العلمي الذي زاد من نسب المتعلمين في المنطقة وشجع على العلم والمعرفة فضلًا عن اهتمامهم ليس بالجانب العلمي فقط، ولكن حتى في مساكن الطلبة هم وعائلاتهم، وتقديم الطعام لهم فسهلوا لهم الدراسة فصار طلب العلم أسهل حتى على القادمين من الخارج، ونتج عن ذلك طلاب مجتهدين شغوفين بطلب العلم.

التوصيات:

1. إن المدارس الملحقة بالمسجد الحرام كان التعليم فيها منصبًا على العلوم الدينية، كتفسير القرآن، وعلوم القراءات، والفقه.
2. حرص جميع السلاطين على إنشاء الكتاتيب، ومن ثم المدارس على مر العصور الإسلامية.
3. إن المدارس السليمانية كانت جامعة إسلامية ساهمت في نشر العلم بمختلف المذاهب الإسلامية.

الهوامش:

(1) (سورة البقرة - 151).

(2) السلمان: مساعد عبدالله، روضة مختصرة في فضل العلم وأهله من الكتاب والسنة، ط1، (د.م: د.ن،د.ت)، ص7.

(3) زيد بن ثابت الخزرجي الأنصاري، ولد في المدينة المنورة عام 11هـ/ 632م، وهو شيخ المقرئين، وإمام الفرضيين، وهو من الصحابة الذين أتموا حفظ القرآن، توفي عام 45هـ/ 665م، وعمره 56عام، انظر: الذهبي: شمس الدين، سير اعلام النبلاء، د.ط(د.م: موسوعة الرسالة، د.ت)، ص67.

(4) شبكة الألوكة: https://2u.pw/m1HNjy

(5) بيت الله الحرام، ويقال انها سميت مكة بسبب ازدحامها، ويقال ان مكة اسم المدينة وبكة اسم البيت، انظر: الحموي: شهاب الدين، معجم البلدان، د.ط، (بيروت: دار صادر، 1397هـ/1977م)، ص 181.

(6) اسمها الأول يثرب، وسميت بذلك لان اول من سكنها بعد التفرق يثرب بن قانية، وعندما نزلها الرسول سماها طيبة.

انظر: الحموي: شهاب الدين، معجم البلدان، د.ط، (بيروت: دار صادر، 1397هـ/1977م)، ص430.

(7) شبكة الألوكة: https://2u.pw/m1HNjy

(8) هو الصحابي الجليل الأرقم بن أبي الأرقم بن أسد الزهري، شهد بدرًا، وهو الذي كان رسول الله مستخفيًا في داره عند الصفا، وتوفي بالمدينة سنة 53هـ/ 673م، وقيل: 55هـ/ 675م. انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، د.ط، (د.م: دار صادر، د.ت)، ج3، ص347.

(9) صديق: امال، الحياة العلمية في مكة المكرمة، د.ط، (مكة: مركز تاريخ مكة،1432هـ/2010م)، ص327-325.

(10) أقيمت المدرسة في الجانب الغربي من المسجد الحرام، سميت بالمدرسة الداودية نسبة الى منشئها داود باشا والي مصر في القرن العاشر الهجري، وكان يدرس فيها العلوم الشرعية والقرآن الكريم. انظر: صديق: الحياة العلمية في مكة المكرمة، ص337-336.

(11) المرجع نفسه، ص330-327.

(12) عرفها الرازي بقوله: الكُتَّاب بالضم والتشديد والمكتب واحد، والجمع الكتاتيب والمكاتب، أي موضع الكتابة. انظر: الرازي: محمد، مختار الصحاح، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1386هـ/1967م)، ص562.

(13) صديق، الحياة العلمية في مكة، ص255-254.

(14) عبد الله المرزباني حدثني أبو حازم القاضي قال: قال لي أحمد بن المدبّر أبو الحسن لو عمّرت مصر كلها لوفت بالدنيا، وقال لي: مساحة مصر ثمانية وعشرون ألف ألف فدّان وإنما يعمل فيها في ألف ألف فدّان، وقال لي: كنت أتقلّد الدواوين لا أبيت ليلة من الليالي وعليّ شيء من العمل، وتقلّدت مصر فكنت ربما بتّ وعليّ شيء من العمل فأستتمه إذا أصبحت، قال: وقال لي أبو حازم القاضي: جبى عمرو بن العاص مصر لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، اثني عشر ألف ألف دينار فصرفه عثمان وقلّدها عبد الله بن أبي سرح فجباها أربعة عشر ألف ألف، فقال عثمان لعمرو: يا أبا عبد الله أعلمت أن اللّقحة بعدك درّت؟ فقال: نعم، ولكنها أجاعت أولادها.

انظر: الحمودي، شهاب الدين، ص138.

(15) توفي بمصر سنة 493هـ/1099م، وهو مشهور بكثرة البر والصدقات بمصر والحجاز. انظر: الفاسي: محمد احمد، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ط1(د.م: دار الكتب العلمية، 1421هـ/ 2000م)، ص430.

(16) صديق، الحياة العلمية في مكة، ص378-374.

(17) هي من مدارس بغداد القديمة أنشأها الوزير نظام الملك في زمن الخليفة العباسي أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله، ولهذه المدرسة شهرة عظيمة، كان يدرس فيها مختلف العلوم واعتبرت مع المدرسة المستنصرية من أشهر مدارس العصر العباسي.

انظر: حسين: امين، الامام الغزالي مدرس المدرسة النظامية ببغداد، د.ت، (العراق: جامعة بغداد، د.ت)، ص343

(18) هورخرونية: سنوك، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، د.ط (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، 1419هـ/ م1999)، ص 487.

(19) هو أبو جعفر «المستنصر بالله» المنصور بن محمد الظاهر، كان خليفة عباسي حكم في بغداد بين عامي (640-623) هـ / (1226– 1242) م. انظر: الذهبي: شمس الدين، سير اعلام النبلاء، د.ط(د.م: موسوعة الرسالة، د.ت)، ص83.

(20) هو قايتباي المحمودي الاشرفي، سلطان الديار المصرية، وهو من المماليك البرجية، تولى حكم ولقب بالملك الاشرف وكانت فترة حكمة حافلة بالحروب. انظر: عفيفي: محمد ناصر محمد، دراسة اثارية معمارية وثائقية لوكالة السلطان الأشرف قايتباي وملحقاتها بالسروجية بالقاهرة، ص379.

(21) هورخرونية، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ص 487.

(22) أحد أشهر السلاطين العثمانيين، حكم لفترة 46 عامًا، منذ عام 927هـ/ 1520م، وبذلك يكون صاحب أطول فترة حكم بين السلاطين العثمانيين. انظر: امجان: فريدون، سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، ط١، (مصر: دار النيل للطباعة والنشر، 1435هـ /2014م)، ص14.

(23) الهند تقع في اسيا ذات مساحة كبيرة.

(24) هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ص490-489.

(25) لم أجد تعريف للشخصية.

(26) مات الأمير قاسم بك الصغير وهو أيضا من اتباع إبراهيم بك أبي شنب وكان فرعون هذه الطائفة في دولة محمد بك جركس وهو من جملة المتعصبين مع ذي الفقار على قتل إسمعيل بك ابن ايواظ والضارب فيه أيضا وفي إسمعيل بك جرجا ولم يزل حتى مات في رمضان بولاية البهنسا.

(27) الجبرتي: عبد الرحمن حسن، د.ط(القدس: مطبعة برينتيف، 1433هـ/ 2012م)، ص188.

(28) لم أجد تعريف للشخصية.

(29) أشهر معماري عصره والدولة العثمانية على مدار تاريخها، والذي قام بتنفيذ أهم منشآت السلطان سليمان في إستانبول والحجاز.

(30) احمد، عبد المنعم، المدارس السليمانية في مكة المكرمة، ودورها العلمي، إبان القرن الحادي عشر الهجري، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، مصر، ع37، 2018م، ص754.

(31) ولد السلطان سليم الثاني في 6 رجب سنة 930 هجرية (الموافق 10 مايو سنة 1533م)، وهو ابن روكسلان الروسية، وتولى الملك بعد موت أبيه. انظر: فريد: محمد، تاريخ الدولة العثمانية، د.ط (د.م: د.ن، د.ت) ص151.

(32) أحمد، المدارس السليمانية في مكة المكرمة، ص753-751.

(33) لولا وجود الوزير الطويل محمد باشا الصقلي المدرب على الأعمال الحربية السياسية لفشلت الدولة، لكنَّ حُسن سياسة هذا الوزير وعظم اسم الدولة ومهابتها في قلوب أعدائها حفظتها من السقوط مرة اخرى. انظر: محمد، تاريخ الدولة العثمانية، ص151.

(34) أحمد، المدارس السليمانية، ص754.

(35) من المدن المعروفة فيها إمارة من إمارات منطقة مكة تتبعها قرى انظر: الجاسر: حمد، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، ج1، د.ط(الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، د.ت)، ص356.

(36) علي، سحر، أشهر مدارس مكة المكرمة في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي- المدارس السليمانية أنموذجًا، مجلة فنون الفراح، العراق، ع12، 2020م، ص203-201.

(37) هو محمد رحمت الله بن خليل الرحمن الكيرانوي الهندي الحنفي، نسبه ينتهي الى عثمان بن عفان عند الجد الرابع والثلاثين، ولد في قرية كيرانه التابعة لمحافظة (مظفر ناجار) من توابع دلهي عاصمة الهند في عام 1233هـ/ 1818م.

(38) الموسوعة الحرة: https://cutt.us/Au7Bg .

(39) صولت النساء بيغم قدمت من الهند، وكانت قد ترملت، وحصلت على ميراث زوجها، فعزمت على إنفاق ذلك الميراث في أداء فريضة الحج وبناء رباط في مكة.

(40) وقفنا: https://cutt.us/lWwCT .

(41) صديق، الحياة العلمية في مكة، ص381-378.

(42) الفقيه، عبد العزيز، المدرسة الصولتية، رسالة ماجستير، تربية إسلامية، (مكة المكرمة: جامعة ام القرى، 1415هـ/ 1994م)، رسالة منشورة ص58.

(43) الفقيه: عبد العزيز، المدرسة الصولتية، رسالة ماجستير، تربية إسلامية، (مكة المكرمة: جامعة ام القرى، 1415هـ/ 1994م)، ص60.

المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: الكتب المصدرية:

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، د.ط، (د.م: دار صادر، د.ت)، ج3.

(2) أحمد: عبد المنعم، المدارس السليمانية في مكة المكرمة ودورها العلمي إبان القرن الحادي عشر الهجري، د.ط، (مصر: جامعة الأزهر-مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، 1440هـ/ 2018م).

(3) امجان: فريدون، سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، ط1،(مصر: دار النيل للطباعة والنشر، 1435هـ/ 2014م).

(4) الجاسر: حمد، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، ج1، د.ط(الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، د.ت)، ص356.

(5) الجبرتي: عبد الرحمن حسن، د.ط(القدس: مطبعة برينتيف، 1433هـ/ 2012م).

(6) حسين: امين، الامام الغزالي مدرس المدرسة النظامية ببغداد، د.ط(العراق: جامعة بغداد، د.ت).

(7) الحموي: شهاب الدين، معجم البلدان، د.ط، (بيروت: دار صادر، 1397هـ/1977م).

(8) الذهبي: شمس الدين، سير اعلام النبلاء، د.ط(د.م: موسوعة الرسالة، د.ت)، .

(9) الرازي: محمد، مختار الصحاح، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1386هـ/1967م).

(10) السلمان: مساعد عبدالله، روضة مختصرة في فضل العلم وأهله من الكتاب والسنة، ط1، (د.م: د.ن،د.ت).

(11) شبكة الألوكة: https://2u.pw/m1HNjy

(12) صديق: امال، الحياة العلمية في مكة المكرمة، د.ط (مكة: مركز تاريخ مكة، 1432هـ/ 2010م).

(13) عفيفي: محمد ناصر محمد، دراسة اثارية معمارية وثائقية لوكالة السلطان الأشرف قايتباي وملحقاتها بالسروجية بالقاهرة.

(14) علي: سحر، أشهر مدارس مكة المكرمة في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي- المدارس السليمانية أنموذجًا، (العراق: مجلة فنون الفراح، 1442هـ/ 2020م).

(15) الفاسي: محمد احمد، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ط1(د.م: دار الكتب العلمية، 1421هـ/ 2000م).

(16) فريد: محمد، تاريخ الدولة العثمانية، د.ط(د.م: د.ن، د.ت)، ص151.

(17) الفقيه: عبد العزيز، المدرسة الصولتية، رسالة ماجستير، تربية إسلامية، جامعة ام القرى، 1415هـ/ 1994م.

(18) الموسوعة الحرة: https://cutt.us/vj5D9

(19) موضوع: https://cutt.us/Sau2Y

(20) موقع رسول الله: https://shortest.link/aaRN

(21) هورخرونيه: سنوك، صفحات من تاريخ مكة المكرمة،د.ط، (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، 1419هـ/ 1999م).

(22) وقفنا: https://cutt.us/lWwCT